بيداغوجيا المقاومة

إيرين بيريرا Irène Pereira

ترجمة: الباحث الحسين يزة

حاصل على شهادة الدكتوراه وأستاذ مادة الفلسفة بالتعليم الثانوي التأهيلي

المغرب

تقديم:

تقف إيرين بيريرا في هذا النص عند شروط إمكان بيداغوجيا مقاومة تستهدف النهوض بالعملية–التعليمية كممارسة نقدية تجعل من المتعلم واستقلاليته مطلبها الأساس. إنها بيداغوجيا تقوم على الوعي بالتناقضات القائمة في المجتمع وعلى مواجهة كل أشكال الاستلاب التي تطبع وجود المتعلم خصوصا تلك التي يعيشها في الوسط المدرسي أو تلك التي تترتب عن طرائق التدريس ومسارات التعلم. تقوم هذه البيداغوجيا على اقتراح نماذج بيداغوجية إجرائية تساعد المدرس على توجيه عمله البيداغوجي بالشكل الذي يسمح للمتعلم أن يطور قدرات أساسية كالتساؤل وممارسة التفكير النقدي وبناء المعنى ضدا على كل صور الاستلاب التي تطبع علاقته بالمعرفة المدرسية.

النص المترجم:

الهدف من هذا النص هو اقتراح عناصر أولية لبيداغوجيا المقاومة. هذا الإسم أقل طموحًا بكثير من بيداغوجيا التحرر؛ التحرر هو عملية جماعية تنطوي على تحول في الشكل المدرسي وبشكل أعم في التنظيم الاجتماعي.

يكمن دور بيداغوجيا المقاومة في اقتراح استراتيجية في حدود دنيا، داخل إطار مجتمع يتسم باللامساواة الاجتماعية، وحيث يجد المدرسون والتلاميذ أنفسهم، من حيث هم ذرات معزولة، مقيدين بالشكل المدرسي. إنها بيداغوجيا تهدف إلى تطوير مسار للمقاومة في ثنايا الشكل المدرسي.

تتوجه بيداغوجيا المقاومة إلى المدرسين والتلاميذ على حد سواء. إنها مقاومة المدرس للنظام المدرسي وهي كذلك تلك القدرات التي يتيح تنميتها لدى تلاميذه ضد استلاب علاقتهم بالمعرفة.

ما الذي يجب مقاومته؟ إنها مقاومة الاستلاب من منطلق معايير النوع الاجتماعي والمنطق الاستهلاكي والإعلامي. طَرح هذه النقدية للاستلاب هنري ليفبفر Henri Lefebvre في كتابه: **نقد الحياة اليومية**، وكذلك مدرسة فرانكفورت بشأن الصناعات الثقافية، والوضعوية...

يجب أن تكون المدرسة فضاء لتنمية قدرات الاستقلالية في مواجهة الاستلاب الاجتماعي المحكوم بمنطق السوق. آخذين بعين الاعتبار أن الشكل المدرسي ينطوي على قيود مرتبطة بالإدارة التكنوقراطية (البرنامج، التقييم، الامتحانات...)، والتي تضاعف وتعزز الاستلاب الناتج عن منطق السوق.

يجب على المدرس، من خلال عمله البيداغوجي، أن يحاول مقاومة إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية واستلاب العلاقة بالمعرفة في الشكل المدرسي.

للتفكير في بيداغوجيا المقاومة، من الممكن الاعتماد على مسار "لا يركن إلى المألوف في العصر"(نيتشه). ولهذا، يتعين العودة إلى الفكر الفلسفي في مساره الطويل لاستخلاص الأدوات منه.

1) من المقاومة الذهنية إلى التمكين الذهني

1. نماذج المقاومة الذهنية

تتمثل الممارسة الأولى للبيداغوجيا المقاومة في تعلم أسلوب المقاومة الذهنية. وقد تم التأكيد على أهمية هذه المقاومة الذهنية في الفلسفة والأدب وحتى في الممارسة النضالية.

في هذا السياق تستوجب الرواقية الزهدية تدريبًا ذهنيا على مقاومة الضغوط الخارجية التي تؤثر على الفرد. ويعد كل من كتاب إبيكتيتوس Epictète وأفكار لنفسي لمارك أوريل Marc-Aurèle تمارين ذهنية تهدف إلى التدريب على مقاومة الضغوط:

يقول لي طاغية: "أنا السيد، أستطيع كل شيء. ماذا تستطيع؟ هل تستطيع أن تمنح نفسك روحًا طيبة؟ هل يمكنك أن تسلبني حريتي؟ [...] لن تزعجني؛ لا يمكن أن يزعجني سوى نفسي. يمكنك أن تهددني كما تشاء، لكنني أقول لك إنني حر" (إبيكتيتوس).

بالنسبة لإبيكتيتوس على وجه الخصوص، يمر هذا التدريب الذهني عبر قدرة الشخص على تغيير تمثلاته بخصوص الوضعيات:

" ما يزعج البشر ليس الأشياء، بل الأحكام المتعلقة بالأشياء".

ومع ذلك، لا ينبغي الاعتقاد بأن الرواقية تؤدي بالضرورة إلى القدرية. بل إنها تتعلق بالقدرة على التمييز العقلاني بين ما يمكن تغييره وما لا يمكن تغييره:

"أعطني القوة لتحمل ما لا يمكن تغييره والشجاعة لتغيير ما يمكن تغييره، وكذلك الحكمة للتمييز بين هذا وذاك" (مارك أوريل).

في رواية "لاعب الشطرنج"، يقدم ستيفان سويغ Stefan Sweig شكلاً متطرفاً من أشكال التدريب على المقاومة الذهنية انطلاقاً من لعبة الشطرنج. مع لاعب الشطرنج، نصل إلى الشكل المتطرف للسياسة التحتية (سكوت Scott). فأحد الأفراد يصنع "قلعة داخلية" لمقاومة قيود النظام الشمولي (هادوت Hadot).

في سبعينيات القرن الماضي، طورت النساء الدفاع عن النفس من منظور نسوي. ويشمل هذا الدفاع ثلاثة أبعاد: التمكين الذهني، والدفاع اللفظي والجسدي. يتعلق الأمر هنا أيضًا بتدريب الشخص ذهنيا. وتتمثل فكرة هؤلاء النسويات في أنه من الممكن زيادة قدرات الذات على التصرف من خلال تدريبها ذهنيا.

2. تكتيكات التأطير

يمكن تسمية القدرة على المقاومة من خلال تغيير تمثلات الفرد بـ "التأطير". يشير مفهوم التأطير عند جوفمان Goffman إلى تفسير يعطي معنى معينًا لموقف معين. يهتم جوفمان في عمله بالأطر الاجتماعية للتجربة.

يمكن للمدرس أن يساعد التلميذ على تغيير الإطار الذي ينسبه إلى موقف ما من خلال اقتراح أطر أخرى لتفسير التجربة التي يمر بها. تهدف تكتيكات المقاومة عن طريق تغيير الإطار إلى مساعدة الطالب على مقاومة استلاب علاقته بالمعرفة داخل الشكل المدرسي على أساس الإلزام المدرسي أو نظام التقييم...

تشكل بعض أطر تفسير المواقف عقبات أمام الانخراط في المهمة وإقامة علاقة حقيقية مع المعرفة:

"إذا لم أتمكن من القيام بذلك، فذلك لأنني غبي" (ذكاء ثابت) "إن نجاح المهمة لا يرتبط بالذكاء الفطري، بل بالعمل" (ذكاء قابل للتغيير). "أنا أعمل للحصول على درجات جيدة" (دافع خارجي) "الأهم هو العمل لإتقان مادة ما، فهكذا يمكننا حقًا أن نتقدم" (دافع داخلي). "أنا في المدرسة لأنني مجبر على ذلك" "أنا مجبر بالطبع على الذهاب إلى المدرسة. ولكن بما أنني هناك، ما الذي يمكن أن أجده مثيرًا للاهتمام بالنسبة لي فيما يتم تعليمه لي" (بناء المعنى).

2) استراتيجيات التعلم

طور "التعليم الاستراتيجي" (تارديف Tardif) مفهوم المدرس الخبير – بفضل معرفته واستراتيجياته في التعلم – الذي يتصرف تجاه تلاميذه كمحفز ومدرب. ويتم ذلك من خلال التدريس الصريح لاستراتيجيات التعلم الأكثر فعالية من خلال تقنيات "النمذجة". يوضح المدرس كيفية تحقيق التعلم من خلال وضع مضخم للصوت على أفكاره. ويكشف طبيعة النشاط الذهني اللازم لاكتساب الخبرة.

يمكن أن تكون هذه الاستراتيجيات من عدة أنواع، على سبيل المثال:

- استراتيجيات التنظيم الذاتي للتحفيز
- استراتيجيات صياغة المعلومة وتنظيمها ذهنيا
- استراتيجيات الحفظ
- استراتيجيات حل المشكلات
- استراتيجيات تنظيم الوقت
- استراتيجيات القراءة
- استراتيجيات الكتابة

على سبيل المثال، إذا أخذنا استراتيجيات الاستماع النشط لدرس معين، فإنها تشمل:

الحفظ/الفهم:

- ربط المعلومات بمعارفك السابقة
- تنظيم المعلومات وترتيبها حسب الأهمية
- ربط المعلومات بالمعلومات الموجودة في الذاكرة طويلة المدى
- تحديد رهانات الخطاب.

- مهارة عالية المستوى:

- إجراء استنتاجات تتجاوز نطاق الدرس
- تقديم اعتراضات

- المشاركة:
  - طرح أسئلة بهدف التحقق من الاستنتاجات
  - طرح أسئلة بهدف اختبار الاعتراضات
- الاستماع إلى الدرس في إطار مشروع يتجاوز نطاق الدرس:
  - البحث الفكري الشخصي
  - مشروع شخصي لتطوير المعارف بشكل منهجي

يجب على التلميذ أن يكتسب استراتيجيات تعلم تسمح له بتطوير علاقة بالمعرفة تشبه تلك التي نجد لدى الخبير، أي علاقة بالمعرفة تتميز قبل كل شيء بأهداف تتعلق بالتحكم وليس فقط بالأداء.

3) تكتيكات المقاومة

مفهوم "التكتيك" مستعار من دي سيرتو De Certeau. التكتيك (الذي يميزه هذا المؤلف عن الاستراتيجية): " تعتمد التكتيكات على الاستخدام الماهر للوقت والفرص التي يوفرها وكذلك الألعاب التي يدخلها في أسس السلطة" (دي سيرتو).

1. التساؤل كأسلوب للمقاومة

أول موقف للمقاومة هو التساؤل. كتب أرسطو أن الفلسفة هي ابنة الدهشة. التساؤل هو الفعل الذي يمكن من خلاله مساءلة البديهيات الاجتماعية وأشكلتها. التساؤل هو شرط إمكانية التفكير النقدي. المدرس الذي يطور تربية مقاومة يكون منفتحًا على أسئلة تلاميذه ويقاوم الميل إلى تجاهل الأسئلة لصالح معالجة البرنامج فقط.

2. قبول التحدث عن المشاكل الاجتماعية والوجودية

المدرس الذي يمارس بيداغوجيا مُقاومة للمعايير المدرسية يقبل التحدث عن القضايا الاجتماعية والوجودية. ولا يسمح بأن يبقى سجينا للبرنامج.

"أنا أعلمهم القراءة أيضاً. أعني، أن يفهموا ويقرأوا، وأن ينتبهوا. – كانوا يطلبون مني هذا الأمر منذ فترة طويلة: في أحد أيام الأربعاء، قرأنا الصحيفة. في البداية، قرأنا عدة صحف. [...] لأن أحد هؤلاء الأطفال كان يعاني من ذلك، تحدثت عن الطلاق. ولأنهم جميعًا كانوا يعانون من ذلك، تحدثت عما نسميه الحب. لا أعرف حتى الآن ما إذا كانت هذه هي المحاولة الأكثر شجاعة أم أكبر حماقة قمت بها. خاطبت هؤلاء الصبية الصغار كأب جاد يخاطب ابنه الحكيم". ألبرت تيري Albert Thierry

3. تشجيع التعبير عن "الصوت الخاص": روح النقد

يجب أن تعزز التربية المقاومة للاستلاب الثقة بالنفس (إمرسون Emmerson) الضرورية للتعلم والتفكير النقدي. لذلك يجب على المدرس أن يشجع قدرة التلاميذ على إسماع "صوتهم" الخاص (لوجيي Laugier).

يجب على المدرس أن يشجع التلاميذ على التحدث أمام أقرانهم لاكتساب الثقة بالنفس والقدرة على التعبير عن رأي نقدي مدعوم بالحجج. يمكن أن يتم ذلك من خلال اقتراح تمارين للتفكير المفتوح، لا تعتمد على إعادة سرد الدرس، بحيث يتم تدريب التلاميذ على التفكير

دون الاعتماد على الدرس. ولكن هذا يفترض أن المدرس يتدرب أيضًا على هذا التمرين لإسماع صوته كمواطن حتى يتمكن من مساعدة تلاميذه على أن يصبحوا مواطنين قادرين على إسماع صوتهم.

4. ربط المعرفة ببعضها البعض

تسعى بيداغوجيا المقاومة إلى معارضة تقطيع المعرفة وتفتيتها وفق منظور ما بعد الحداثة. إنها بيداغوجيا تسعى إلى مساعدة المتعلم على بناء معنى من خلال إقامة رابط بين المعارف المجزأة إلى تخصصات.

تقترح بيداغوجيا المقاومة على التلاميذ ربط المعرفة ببعضها البعض لتمكينهم من الوصول إلى تفكير مركب. يفترض التفكير المركب الوصول إلى تفكير شامل:

"الشمولية هي أكثر من مجرد سياق، إنها المجموعة التي تحتوي على أجزاء متنوعة مرتبطة بها بشكل تفاعلي أو تنظيمي. وبالتالي، فإن المجتمع هو أكثر من مجرد سياق: إنه كل منظم نحن جزء منه". موران Morin

يتمثل عمل المدرس في توجيه التلاميذ إلى الاشتغال وفق منطق الربط بين مختلف المعارف.

5. بناء المعنى

تقف تربية المقاومة ضد الميل إلى عدم التساؤل عن أهمية المعارف المكتسبة. فهي تساعد المتعلم على بناء المعنى. يمكن أن نسمي "نزعة ميكانيكية" الميل إلى تعليم التلاميذ معارف يمكنهم استرجاعها دون فهم معناها. يمكن أن نسمي "النفعية" الميل إلى اختزال بناء المعنى إلى الفائدة العملية. لكن البشر لا يسعون إلى المعرفة لأسباب نفعية، بل لأسباب حيوية. تتكون عملية المعرفة من وصف للواقع لا يمكن فصله عن إنتاج تفسير لهذا الواقع. ويمكن أن يتم ذلك من خلال حث التلاميذ على التفكير في مواقف مهمة ومركبة قريبة من الحياة الواقعية لمعرفة ما إذا كانوا قادرين على تحويل معارفهم.

6. تغيير نظام التقييم

يفرض النظام المدرسي تقويما للأعمال المدرسية يتسم بالتنافس المدرسي والتصنيف الهرمي. ويميل المدرسون عادة إلى تقويم الأداء الفعلي.

تغيير نظام التقييم يعني إعطاء قيمة للعمل وليس الأداء الفعلي فقط. لا يمكن تطوير الخبرة في مجال ما دون العمل. تظهر نظرية أندرس إريكسون Anders Ericsson أن تطوير الخبرة لا يمكن فصله عن الممارسة على المدى الطويل. يتعلق الأمر بجعل التلميذ لا يتحرك بدوافع خارجية، بل أن يكون منخرطًا في المهمة.

7. التحكم في الوقت

أظهر الفيلسوف هارتموت روزا Hartmut Rosa كيف أن استلاب الحياة اليومية، واحتلالها بواسطة التقنو–رأسمالية، يترجم إلى فقدان التحكم في الوقت تحت تأثير تسارع الوقت الاجتماعي.

إن تربية المقاومة هي تربية تذكر المدرس والتلاميذ بأهمية الحفاظ على وقتهم من خلال التفكير في ما هو مهم في الوجود وما هو تافه. هذا هو التفكير الذي يدعونا إليه سينيكا Sénèque في كتابه **عن قصر الحياة**: "لا: الطبيعة لا تعطينا القليل: نحن الذين نخسر الكثير. إن وجودنا طويل بما يكفي وواسع بما يكفي لإنجاز أعظم الأعمال، إذا ما تم توزيع كل ساعاته بشكل جيد. ولكن عندما تضيع في الملذات أو

الكسل، عندما لا يوجد أي عمل جدير بالثناء يشير إلى استغلالها، عندئذ، في اللحظة الحاسمة والحتمية، هذه الحياة التي لم نرها تمضي، نشعر أنها قد ولت بلا عودة. مرة أخرى، الحياة قصيرة، ليس كما قيس لنا، بل كما صنعناها؛ نحن لسنا فقراء في الأيام، بل مسرفين".

بناء على ذلك يمكن للمعلم أن يأخذ الوقت في الفصل لإجراء مناقشات فلسفية حول تسلسل القيم في الحياة.

يمكن أن يظهر النشاطان التاليان كممارستين مقاومة لاستلاب الوجود ويمكن تشجيعهما من داخل بيداغوجيا المقاومة.

8. القراءة كممارسة للمقاومة

القراءة الشخصية هي ممارسة تكسب التلميذ القدرة على مقاومة استلاب وجوده من جهة واستلاب علاقته بالمعرفة من جهة ثانية. في الواقع، إنها نشاط زهدي ascétique يدرب الفكر البشري على مقاومة الانحرافات، ويفرض عليه التركيز، ويعلمه ألا يخاف الوحدة.

في رواية فهرنهايت Fahrenhiet 451، يصف راي برادبري Ray Bradbury كيف أن القراءة تشكل نشاطًا مقاومًا. ليس من الضروري أن نتخيل نظامًا استبداديًا يحرق الكتب لكي نجعل من ذلك ممارسة مقاومة. إن حقيقة أن العديد من معاصرينا يؤكدون أنهم لا يملكون الوقت الكافي لقراءة الكتب تظهر كيف أن قراءة الكتب بالكامل تشكل فعلاً من أفعال المقاومة في مواجهة استلاب الوجود في المجتمع الاستعراضي-التجاري (ديبور Debord).

تسمح القراءة بمراكمة رأس مال ثقافي ضروري لتكوين الخبرة سواء من جانب المدرس أو التلميذ. يجب أن يسعى المدرس الخبير إلى الحصول على مستوى عالٍ من الثقافة العامة.

9. الكتابة كممارسة مقاومة

تشكل الكتابة شكلا آخر من ممارسة المقاومة. إن كتابة مارك أوريل Marc-Aurèle لأفكاره الخاصة تشهد على دور الكتابة في بناء حصن داخلي.

هنا أيضاً، أظهرت تجارب تاريخية متطرفة أن كتابة يوميات شخصية أصبحت الملاذ الذي يمكن أن يلجأ إليه النقد في مجتمع استبدادي. ومن الأمثلة على ذلك اليوميات التي كتبها فيكتور كليمبرر Victor Klemprer عن لغة الرايخ الثالث.

يمكن أن تشكل كتابة "يوميات الممارسات" (ريمي هيس Remi Hess) أداة لوضع منهجية تعليمية للمقاومة. إن تشجيع التلاميذ على الكتابة لأنفسهم وأن يطلب منهم قراءة ما يكتبونه إذا أرادوا ذلك قد يكون وسيلة لمساعدتهم على الوصول إلى عمليات من المستوى الثاني التي تعد ضرورية لتطوير التفكير التأملي والميتا-خطاب.

10. "المقاومة هي الإبداع" (دولوز Deleuze)

لا يمكن فصل منهجية المقاومة عن الحافز المزدوج للإبداع. يجب أن يكون الإبداع من جانب المدرس الذي يجب أن يظهر الابتكار حتى يتمكن من مقاومة استلاب ممارساته في ثنايا الشكل المدرسي. الإبداع موجود أيضًا في الأعمال التي يقترحها المدرس على تلاميذه. فهو لا يفرض عليهم فقط تطبيق ما تعلموه. بل يتيح لهم، بفضل الأعمال المفتوحة، إظهار إبداعهم. وتفترض المهمة المفتوحة وجود عدة إجابات ممكنة وإمكانية ابتكار إجابات لم يفكر فيها المدرس نفسه. ويمكن للمدرس أيضًا أن يقترح على المتعلمين تمارين لتدريبهم على الإبداع.

الهوامش:

[1] فيلسوفة وعالمة اجتماع

مصدر المقال المترجم:

Irène Pereira, Une pédagogie de la résistance, Diotime, Revue internationale sur les pratiques et la didactique de la philosophie, n°70 (10/2016).